امير مراكش والبابا اينوشنسيوس الرابع

طرفة للاب انطون رباط اليسوعي

في مكتبة مخطوطات الفاتيكان السرّية برومية عدّة رسائل عربيّة دينيّة ذات شأن كنّا اطّلعنا على شذرات منها فرغبنا في نقل بعضها بالفوتوغرافية ومنذ اسابيع قلائل جاءتنا اضبارة من هذه المنقولات فاستلفتت نظرنا رسالة مخطوطة بالحرف المغربي البديع الشكل فأجهدنا النفس على قراءتها رغماً عن الصعوبة المسبّبة عن رسمها الفوتوغرافي وعن نوع تركيب الحروف ومرور سبعة قرون على القرطاس بحيث اتلف منهُ الهامش . فاذا بها رسالة من امير مراكش ابي حفص عمر الملقّب بالمرتضي الى البابا اينوشنسيوس الرابع كُتبت في ١٧ ربيع الاول عام ٦٤٨ هجري (١٢٥٠ مسيحيّة) وهي تملأ وجهاً وربع وجه من صفحة كبيرة ابتدأ فيها الخطّاط بالبسملة وأتبعها بالحمدلة بحرف كبير ثم نضّد الرسالة على ترتيب خاص بحيث أنهُ قصّر الاسطر ووسّع الهامش تباعاً ثم عاد فملأ الهامش بتمامه . وهي محفوظة بين مخطوطات قصر سنت انجلو في الخزانة السابعة العلبة الرابعة العدد ١١ (١)

ولمّا رغبنا في نشرها جعلنا ننقّر في توار يخ العرب ومؤلفات الاوروبيين عسانا نطّلع على تفاصيل اخرى عن هذه العلاقات واسبابها ونتائجها فعثرنا في المجلد الواحد والعشرين من تاريخ العلّامة بارونيوس (٢) على رسالة بعث بها البابا اينوشنسيوس الى صاحب مراكش تاريخها ٢٥ اذار ١٢٥١ يلمّح بهِ الحبر الاعظم الى معنى ما احتوت عليهِ رسائله السابقة وكأني بالبابا كتب رسالته هذه الاخيرة قبل اطلاعه على جواب الامير عمر الذي نحن بصدده . فجمعنا بين اقوال كتبة اوروبة وبين اقوال مؤرخي العرب كابن خلدون في تاريخهِ وابن ابي دينار صاحب «كتاب المونس في اخبار افريقية وتونس» والامام صالح بن عبد الرحيم صاحب «روض القرطاس في اخبار المغرب وفاس» ومحيي الدين صاحب «كتاب المعجب في تلخيص اخبار المغرب» وغيرهم واستخلصنا الافادات التالية ليقرب فهم الرسالة على القرّاء الكرام

(١ Arch. S. Angelo Armadio VII Capsa IV. n° 11

(٢ Baronii Annales, t. XXI, Innoc. IV anno 9. 1251. n° 29

امير مراكش صاحب الرسالة — قال ابن ابي دينار « هو ابو حفص عمر بن الامير اسحق بن الامير عبد المؤمن بن علي بويع في ربيع الاخر سنة ٦٤٦ بعد موت ابي الحسن علي الملقّب بالسعيد. عُقد لهُ البيعة بمدينة رباط الفتح وارتحل الى مراكش واخذ البيعة عن اهلها واستقام لهُ الامر من مدينة سلا الى مدينة السوس ». وقال الامام ابو محمد صالح بن عبد الحليم في كتاب روض القرطاس : « هو عمر بن السيد ابي ابرهيم اسحق بن امير المسلمين يوسف بن عبد المؤمن . . . » قال ابن زيني دحلان في كتاب المستطاب : « وفي مدتهِ كثرت الفتن بينهُ وبين مرين واستولى بنو مرين على مدينة فاس ثم حاصروا مراكش فصالحهم على مالٍ يدفعهُ اليهم كل عام . . . » وهو الامير الثالث عشر من امراء الدولة الموحدية ولي الامارة غرّة ربيع الاول ٦٤٦ هـ ومات سنة ٦٦٥ وقام بعدهُ ادريس ابو دبوس فمات سنة ٦٦٧ وبهذا انقرضت الدولة الموحدية وانتقلت بلاد المغرب الى حكم بني مرين وصارت افريقية الى بني حفص

محمد بن تُومَرت المتسمّي بالمهدي — ورد في الرسالة ذكر هذا الرجل الشهير الذي اسهب مؤرخو مراكش في وصف احوالهِ واخبارهِ فاردنا ذكر شيء من امره. قال صاحبا المونس والمعجب وغيرهما : لمّا كانت سنة ٥١٥ هـ قام بسوس محمد بن عبد الله بن تومرت في صورة آمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر . . وكان قد رحل الى المشرق في شهور سنة ٥٠١ هـ في طلب العلم وانتهى الى بغداد ولقي ابا بكر الشاشي فاخذ عليهِ شيئاً من اصول الفقه وسمع الحديث علي المبارك بن عبد الجبّار ولازم ابا حامد الغزالي ثلاث سنين وحصل عليهِ علماً عظيماً. فقفل راجعاً الى المغرب سنة ٥١٠ فلقيهُ عبد المؤمن بن عليّ فانضاف الى خدمتهِ ثم رحل الى فاس ومنها الى مراكش يدعو الى علم الاعتقاد على طريق الاشعريّة وينهى عن المنكر فلحق بهِ كثيرون فبايعوهُ على الرخاء والشدّة ثم بايعتهُ القبائل وانتشر خبرهُ في كل الانحاء واتاهُ الناس من كل فجّ فاعلمهم انهُ الامام المهدي المنتظر وجعل توحيداً بلسان البربر وسمّى الذين دخلوا في طاعته الموحّدين فأُشربت قلوبهم محبته واجسامهم طاعته ثم جوت لهُ وقائع مع دولة المرابطين فكان اصحابه ظاهرين واحوال المرابطين في اختلال وتقهقر الى ان تملكت الدولة الموحدة على البلاد والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

سبب الرسالة — كان ابن يعقوب المنصور الملقّب بالعادل امير مراكش فوّض امر

الاندلس الى اخيهِ ابي العلاء ادريس فقوي امر ابي العلاء في الاندلس ثم بويع لهُ فيها ولم يلبث ان جاز البحر الى مدينة سبتة طلباً للامارة وجرت بينهُ وبين العادل ثم بينهُ وبين يحيى خلف العادل حروب كانت فيها الغلبة لابي العلاء وجُدّدت لهُ البيعة وسمّي المأمون. قال الشيخ محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني: كان ابو العلاء فصيح اللسان ضابطاً للحديث الشريف حسن الصوت والتلاوة سالكاً في امور الدنيا والدين حازماً شجاعاً وهو اوّل من ادخل النصارى الى مراكش استنصر بهم ودخل معهُ اثنا عشر الف نصراني

وجاء في روض القرطاس ان الملك النصراني اشترط شروطاً قبل موازرته بالمال والرجال منها ان تكون الجنود المسيحيّة في امن من دينهم ودنياهم بمراكش يحفظون شرائع الانجيل ويبنون لهم كنيسة... فرضي ابو العلاء بالشروط فامدّهُ الملك النصراني باثني عشر الفاً من الجنود الباسلة فرافقتهُ الى افريقيّة ودافعت عن صوالحه وابلت بلاءً حسناً في سبيل حقوقه

وما زال عدد النصارى في ازدياد يسكنون احياء بتامها مع عيالهم ويخدمون الدولة اصدق خدمة في الجنديّة وتنظيم السلاح الخ حتى ان الحبر الاعظم اقام لهم برضى الامير اسقفاً يسهر على صوالحهم ويهديهم الى مناهج دينهم حفظاً للفرض الواجب وطاعةً لمن انتدبهم لخدمته. لكن احوالهم تغيّرت في اواسط القرن السابع للهجرة فاصبحوا عرضة للصوص الذين كانوا ينتهزون فرصة غياب الرجال في خدمة الامير فيفتكون بالنساء والاولاد

هذا سبب رسالة الحبر الاعظم سلمها الى اسقف البلدة ليقدمها الى امير مراكش طالباً اليهِ ان يسهر على صوالح النصارى لئلّا تُبخس حقوقهم وعليها يجيب الامير كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

صلّى الله على سيدنا محمد وعلى آلهِ وصحبهِ وسلّم تسليماً والحمد لله وحده

من عبد الله عمر امير المؤمنين بن سيّدنا الامير ابي ابرهيم بن امير المؤمنين بن امير المؤمنين ايّدهم الله تعالى بنصره وامدهم بمعونته

الى مطاع ملوك النصرانيّة ومُعظَّم عظماء الأُمّة الروميّة وقيّم الملّة المسيحيّة ووارث رئاستها الدينيّة البابه «اينه سانس اش» انار الله تعالى بصيرته بتوفيقه وارشاده. وجعل التقوى التي امر عزّ وجلّ بها عُدّتهُ لمحياهُ ومعاده. واثالهُ من سابق الهداية ما يقضي لمدى العناية بدائم انفساحه وامتداده. تحيّةً كريمةً نراجع بها ما تقدّم من تحيّاتكم الواردة علينا. ويترجم لكم ارجُها عمّا تغمّدكم بهِ المنّان لدينا

امّا بعد فانّا نحمد الله الذي لا اله الّا هو حمدَ من علم انهُ الربّ الواحد الذي دلّت على وحدانيّته البراهين القاطعة والشواهد. ونصلّي على سيّدنا محمد رسوله المصطفى الكريم الذي وضحت بهِ للنجاة المذاهب والمقاصد. وخُرقت لهُ بظهور المعجزات الباهرة على يديهِ العوائد. ونُصر بالرعب فالقى لهُ يدَ الاستسلام كلُّ من كان يناوي ويعاند. وعلى آلهِ وصحبهِ الكرام الذين ازدانت بهم المحاضر والمشاهد. ووصلت قصار صوارمهم في مواقف الحروب السواعد. وانجزت لهم في استيلاء الاسلام على مشارق الارض ومغاربها المواعد. ونسأل الله عزّ وجلّ رضاهُ عن الامام المعصوم. المهدي المعلوم (اطلب المقدّمة). الذي جدّ بهِ لدين الله تعالى الشباب المعاود. واهلت بهدايته بعد اقفارها المعاهد. وباء بالخسران الخاتل بامره والمكايد. وعن الخلفاء الراشدين المهتدين الذين تولى منهم اتمام بداية الامام الراشد فالراشد. وعلت بهم لامر الله تعالى المراقي والمصاعد. وعن سيّدنا الامير الطاهر ابي ابرهيم بن سيّدنا الخليفة امير المؤمنين بن سيّدنا الخليفة امير المؤمنين الذي طابت منهُ العناصر والمحاتد. واشتقّ من نبعةٍ للخلافة قد اورق نضارة وغضارة فشهد المآبد [؟]. وزهد في الدنيا الفانية. ورغب في الاخرى الباقية فنعم الراغب الزاهد

وهذا كتابنا كتب الله تعالى لنا حظوظاً من رضاهُ تركو وتتوفّر. واستعملنا وايّاكم بكل ما نتهيّأ بهِ لاحراز الفوز لديهِ ونتيسّر. من حضرة مراكش حرسها الله تعالى ودين الله عزّ وجلّ عالٍ مسماه ومصعده. والتوحيد حالٍ بالظهور جيدهُ ومُقلّدهُ. والسعي معمل في ابتغاء وجه الله تعالى موفّقه ومسدّده. والحمد لله رب العالمين حمداً يتوالى على الالسنة تكررهُ وتردّدهُ. ونستدعي بهِ من مزيد النعماء افضل ما وعد بهِ تعالى من

يشكرهُ ويحمدهُ . والى هذا يسّر الله تعالى بتوفيقه اسعادكم . وجعل في طاعته التي تعبّد بها خلقه اهداءكم وايرادكم

فانهُ سبقت منّا اليكم مراجعات عن كتبكم المؤرّخة الواصلة الينا وقدمنا نحوكم من الجواب عنها ما تممنا بهِ برّكم ووفّينا . وعرّفناكم انّا نوجب لمنصبكم الذي ابرّ في ملّتكم على المناصب . واقرّ لرتبتكم فيهِ اهل دينكم بالشغوف على سائر ما لهم من المراتب . فانتم عندنا لذلكم بالتكرمة الحفيلة ملحوظون . وبالعناية الجميلة محظوظون . نؤكد من اسباب المواصلة لكم ما حقّه ان يُؤكّد . ونجدّد من عهود الحفاية بكم ما شأنه ان يجدّد . ونشكر لكم ما توالى علينا من حسن ايثاركم لجنابنا وتردّد . وفي سالف هذه الأيام انصرف عن حضرة الموحدين اعزّهم الله البشب (١ الذي كان قد وصل بكتابكم الينا انصرافا لم يعدم منا فيه شرف واكرام . ولم يغبه فيهِ اعتناء بهِ واهتمام . كما انهُ في المدّة التي قضي لهُ فيها لدينا بالمقام لم تزل نتغمده اثنائها بالاحسان والانعام . وتحمّل كتابنا اليكم تعريفاً بما اختار من انصرافه . وتوخياً في ما اثره من ذلك لاسعافه . وما قصر لهُ في حالَيْ مقامه ورحيله . ولا عدل بهِ عن حمّي البر وحفيله وسنيّ المنّ وجزيله . ذهاباً لتكريم اشارتكم السابقة في حقه وسلوكاً بهِ من البر على اوضح طرقه . والله تعالى يرشد في كل الاحوال . لازكى الاعمال لديهِ وينجز من الاقوال والافعال على ما يقرن اليهِ يمنه . ومتى سنح لكم اسعدكم الله تعالى بتقواه ان توجهوا لهؤلاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين اعزّهم الله من ترونهُ برسم ما يصلحهم في دينهم ويجريهم على معتاد قوانينهم فتخيّروا من اهل العقل الراجح والسمت الحسن ومن يسير في النزاهة على واضح السنن وممن يتميّز في الخدمة بالمذهب المستجاد والفضل المنتخب وذلكم هو الذي اذا تعيّن من قبلكم مستجمعاً للصفات المذكورة ومتحلياً بالخلال المشكورة حسن في كل ما [يستخدمهُ] وتسنى لهُ بذلك اجزل الخير واوفره وانتم تفون بهذا المقصود في ما تعملون من اختياركم متى ظهر لكم التوجيه بهذا الرسم لاحد وتعتمدون فيهِ اجمل معتمد . وشكرنا لكم كل ما تذهبون اليهِ في جانبنا من تسنية الاغراض والمذاهب . وتحتفلون فيهِ من المساعدة الصادرة منكم عن كرم الضرائب . وتبادرون الى بذله من المكارم المناسبة لما لكم في نحلتكم من امامة المناصب مما نكافي بهِ صدق مصادقتكم . ونتوخى منهُ ما لا يعدل عن

(١ نظنهُ تعريب Episcopus

موافقتكم جزاء لبركم بامثاله واعتناء بما يقضي لولائكم بدوامه واتصاله بحول الله تعالى وقوته وهو سبحانهُ ييسرنا لنيل الحسنى والزيادة من فضله . ويأخذ بنا في ديننا ودنيانا على اقوم سبله . ويجعلنا واياكم بما يمنحنا من التوفيق في اول رعيل من حزب الحق واهلهُ بمنه وكرمه لا رب سواه

كتب في الثامن عشر من شهر ربيع الاول عام ثمانية وار بعين وستمائة

[عنوان الرسالة :]

الى مطاع ملوك النصرانيَّة ومعظم عظماء الامة الروميَّة وقيم الملة المسيحيَّة ووارث رياستها الدينيَّة البابه « اينه سانس اش » انار الله تعالى بصيرته بالتوفيق والارشاد ومنحهُ بتقواه سعادة الحيا والمعاد

يمين العلي

رواية تاريخية للاب س . ت اليسوعيّ (تتمَّة)

الفصل الخامس عشر

في اكدار الحاضرة وسرات الآخرة

غابت شمس ذاك اليوم المعدود وارخى الليل سدولهُ على بيروت . وبينما كانت اصوات الشعب المائج تملأ انحاء المدينة ضجيجاً كان سكوت الموت يخيّم على ملعب بيروت فترى في ساحتهِ خِلطاً من العظام المهشَّمة واللحمان المتقطعة التي لا تُعرف لها صورة . وعلى مقربة منها كانت الوحوش الشبعى رابضةً تهضمُ مآكلها البشريَّة ريثما تقوم في غدٍ فتغتذي من بقاياها

وبعد وهنٍ من الليل طلع القمر فانار باشعَّتهِ الفضيَّة تلك الجثث وكان هناك بعض النصارى اتوا ليصلُّوا لاجل اخوانهم المتوفين بالرب فخيّل لهم انَّ البدر سجّى الموتى باكفان من النور وان ملائكة السماء انحدرت لتجعل فوق هامهم اكاليل الظفر

امَّا دار الورود فانَّها كانت عادت الى افراحها السابقة برجوع صموئيل ربّها . فقضى فيها الشيخ المسكين اياماً من الراحة لم يعهدها منذ نحو عشرة اشهر . وكان يزيد فرحهُ